

مَرَجَعِيَّاتُ الْقِصَصِ الدِّينِيِّ فِي شِعْرِ أُمِّيَّةِ بِنِ أَبِي الصَّلْتِ الثَّقَفِيِّ

خَتَامُ سَعِيدِ سَلْمَانَ*

تَقْدِيمٌ

تَقُومُ هَذِهِ الدِّرَاسَةُ عَلَى مَحْوَرَيْنِ هُمَا: الْكَشْفُ عَنِ الْحَيَاةِ الدِّينِيَّةِ عِنْدَ الْجَاهِلِيِّينَ عِبْرَ الشَّاعِرِ الثَّقَفِيِّ أُمِّيَّةِ بِنِ أَبِي الصَّلْتِ، وَالرَّدُ عَمَلِيًّا عَلَى التَّهْمَةِ الَّتِي وَجَّهَهَا الدُّكْتُورُ طَهَ حَسِينٌ إِلَى الشِّعْرِ الْجَاهِلِيِّ حِينَ قَالَ: "إِنَّ هَذَا الشِّعْرَ يَظْهَرُ لَنَا حَيَاةً بَرِيئَةً أَوْ كَالْبَرِيئَةِ مِنْ الشُّعُورِ الدِّينِيِّ"¹، فَالْقَارِئُ لِشِعْرِ أُمِّيَّةٍ يَفَاجَأُ بِأَنَّهُ كَرَسَ كَلِيَّةَ شِعْرِهِ لِحُدُومَةِ الْفِكْرِ الْحَنْفِيِّ، الْقَائِمِ عَلَى وَحْدَانِيَّةِ اللَّهِ، فَوْقَ فِي النَّاسِ وَاعْظًا، وَمُرْشِدًا، وَدَلِيلًا لَهُمْ إِلَى شَوَاطِئِ الْهُدَى وَالْإِيمَانِ.

أَمَّا الْمَحْوَرُ الثَّانِي فَالْقِصْدُ مِنْهُ الْبَحْثُ عَنِ مَرَجَعِيَّاتِ شِعْرِ أُمِّيَّةٍ، وَالنَّظَرُ فِي النُّصُوصِ الْأَصْلِيَّةِ الَّتِي تَأْتُرُ بِهَا، حَيْثُ كَانَتْ الْكُتُبُ السَّمَاوِيَّةُ الْمُقَدَّسَةُ مُورَدًا غَزِيرًا نَهْلًا مِنْهُ الشَّاعِرُ، وَقَدْ ظَهَرَ هَذَا بَوْضُوحًا فِي ضَوْءِ مَقَارَنَةِ النَّصِّ بِالنَّصِّ، عَلَى مَسْتَوَى اللَّفْظِ وَالدَّلَالَةِ وَالْمُضْمُونِ وَالْغَايَةِ.

* مَخَاضِرَةٌ فِي قِسْمِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ، كَلِيَّةُ الْآدَابِ، جَامِعَةُ بَيْرِزِيَّتِ، فِلَسْطِينِ.

¹ طَهَ حَسِينٌ، فِي الْأَدَبِ الْجَاهِلِيِّ (القاهرة: دار المعارف، د. ت)، ص ٧٣.

تمهيد وتعريف

هو أمية بن أبي الصلت الثقفي^١، شاعر من أبرز شعراء مدينة الطائف في العصر الجاهلي، قال أبو عبيدة: "اتفقت العرب على أن أشعر أهل المدن أهل يثرب، ثم عبد القيس، ثم ثقيف، وأن أشعر ثقيف أمية بن أبي الصلت"^٢.

وذكر أبو الفرج الأصفهاني^٣: أنه كان في مطلع حياته يعمل في التجارة بين الشام واليمن، ثم لبس المسوح ونبذ عبادة الأوثان، وحرّم الخمر على نفسه، وأقام في البحرين ثماني سنوات. بعد ذلك عاد إلى الطائف، وقابل الرسول ﷺ، ودعاه إلى الإسلام، وتلا عليه بعض آيات القرآن الكريم، فلم يسلم.

فأمية أدرك الإسلام ولم يسلم، ويبدو هذا الموضوع شديد الغرابة، ومتناقضاً مع ما عرف عن أمية في الجاهلية من أنه كان من الحنفاء، والحنفاء: جمع حنيف وهي صفة لإبراهيم الخليل عليه السلام، قال تعالى: ﴿قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (البقرة: ١٣٥)، وحنيف تعني المائل عن الشرك، وملة إبراهيم هي ملة التوحيد، والإيمان بالله سبحانه وتعالى، والإيمان باليوم الآخر. وأمية نفسه جسّد هذه الإيمانيات في شعره، الذي كرّسه لوعظ الناس وهدايتهم، كقوله:^٤

إِنَّ آيَاتِ رَبِّنَا بَيِّنَاتٌ	مَا يَمَارِي فِيهِنَّ إِلَّا الْكُفُورُ
خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ فَكُلٌّ	مُسْتَبِينٌ حَسَابُهُ مَقْدُورٌ
كُلُّ دِينٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ اللَّهِ	— إِلَّا دِينَ الْحَنِيفَةِ بَورُ

فالشاعر يقرُّ بوجود الله ووحدانيته، ويجادل أولئك الذين يشككون في وجوده

^١ اسم أبي الصلت عبد الله بن أبي ربيعة بن عوف كما ورد في ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم (٥٢٧٦هـ)، الشعراء والشعراء، تحقيق مفيد قميحة ومحمد أمين الضناوي (بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠٠)، ص ٢٨٠؛ الأصفهاني، أبو الفرج علي بن الحسين (ت ٥٣٥٦هـ)، الأغاني (القاهرة: دار الكتب المصرية، د.ت)، ج ٤، ص ١٢٠.

^٢ أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، ج ٤، ص ١٢٢.

^٣ المرجع نفسه، ج ١٧، ص ٣١٨-٣٢٢.

^٤ الحديثي، بجهة، أمية بن أبي الصلت حياته وشعره (بغداد: مطبعة العاني، ١٩٧٥)، ص ٣٣٧-٣٣٩.

مع أن الآيات الدالة عليه كثيرة وبينة. ولا ينكرها إلا كافر ممن في كفره مصرُّ عليه. وهو يؤمن بالله الواحد الأحد، ولا يشرك به، وينفر من عبادة الأرباب الذين لا يسمعون من يدعوهم. كقوله:^١

رضيتُ بك اللهم ربًّا فلن أرى أدينُ إلهاً غيرك الله ثانياً
أدينُ لربِّ يُستجاب ولا أرى أدينُ لمن لم يسمع الدهر داعياً

وهذه المعاني التي عبر عنها أمية تتفق مع المعاني الإسلامية التي دعا إليها القرآن الكريم. ومثال ذلك: "كل دين يوم القيامة..." يقابل ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (آل عمران: ٨٥). وأما قوله: أدين لرب يستجاب... فيبدو كأنه نظم مباشر لمعاني القرآن و ألفاظه: ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾ (فاطر: ١٤).

ومن زاوية أخرى، فقد روي أن الرسول ﷺ كان يستمع إلى شيء من شعر أمية، لما فيه من دين وتحنف. فقد جاء في "صحيح مسلم" عن عمرو بن الشريد عن أبيه^٢ أنه قال: "ردفت رسول الله يوماً، فقال: «هل معك من شعر أمية بن أبي الصلت شيء؟» "قلت: نعم. فقال: «هيه»، حتى أنشدته مائة بيت. فقال ﷺ: «لقد كاد ليسلم»^٣. وفي رواية أخرى قال: «آمن لسانه، وكفر قلبه»^٤.

ويبقى التساؤل مشروعاً وقائماً: لماذا لم يسلم أمية؟

حاول القدماء تفسير ذلك بمبدأ الحسد للرسول الكريم، فأمية قرأ الكتب السماوية في الجاهلية كالتوراة والإنجيل، وكان يعلم أن نبياً سيبعث من العرب، فهياً

^١ بحجة الحديثي، أمية بن أبي الصلت حياته وشعره، ص ٣٦٨.

^٢ هو صحابي مات في خلافة يزيد بن معاوية. ابن سعد، محمد بن رفيع الزهري، الطبقات الكبرى (بيروت: دار صادر، ١٩٥٧)، ج ٥، ص ٥١٣.

^٣ القشيري، مسلم بن الحجاج (٢٦١هـ)، صحيح مسلم، كتاب الشعر، باب في إنشاد الأشعار، (القاهرة: المطبعة المصرية، د.ت)، ج ١٥، ص ١١.

^٤ ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم، المعارف (القاهرة: دار الكتب المصرية، ١٩٦٠)، ص ٢٨.

نفسه ليكون هذا النبي. فلما بُعث الرسول ﷺ، وخرجت النبوة من أمية، حسده وكفر به. ووقف إلى جانب المشركين في عدائهم للاسلام، وكان شعره شديد القسوة على المسلمين، حميم العاطفة مع المشركين. وهذا واضح في تلك القصيدة التي نظمها في رثاء قتلاهم في غزوة بدر،¹ وكان قد قتل فيها ابنا خال له، وكان الرسول ﷺ نهي عن روايتها، ومع ذلك رويت. وفيما يلي مختارات منها يبكي فيها الشاعر قتلى قريش، ويجرّض على أخذ الثأر لهم:

هلا بكيت على الكرا م بني الكرام أولي الممادح
كبكا الحمام على فرو ع الأيك في الغصن الجوانح
إلى أن يقول:

لله درُّ بني عليِّم أيِّم منهم وناكح
إن لم يغيروا غارة شعواء تحجر كل نابح

وظلّ أمية على كفره حتى وفاته في السنة الثامنة للهجرة.²

القصص الديني في شعر أمية: دراسة مقارنة

القصص الديني: هو كلّ قصة موضوعها الأساسي الرسل والأنبياء، وقد تضمّن شعر أمية الكثير من قصص الأنبياء وأخبار الأمم والشعوب الغابرة. ونلاحظ أن القدماء تنبّهوا إلى وفرة المعاني الدينية في شعره، فقال الأصمعي: "ذهب أمية في شعره بعامة ذكر الآخرة".³ وذكر ابن سلام أنه كان يذكر في شعره من خلق السموات

¹ ابن هشام، عبد الملك (٥٢١٨هـ)، السيرة النبوية (القاهرة: مطبعة الحلي بمصر، ١٩٥٥)، ج ٢، ص ٣٢. ذكر ابن هشام بعد أن أورد هذه القصيدة أنه أسقط منها بيتين نال فيهما أمية من أصحاب الرسول ﷺ.

² لم يتفق القدماء على تحديد السنة التي توفي فيها أمية، لبسط القول انظر: البغدادي، عبد القادر بن عمر (ت ٥١٠٩٣هـ)، خزائن الأدب، تحقيق عبد السلام هارون (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط ٢، ١٩٧٩)، ج ١، ص ٢٥١.

³ الأصفهاني، الأغاني، ج ٤، ص ١٢٥. وجاء كلامه هذا ضمن مقولة: "...وذهب عنترة بعامة ذكر الحرب، وذهب عمر بن أبي ربيعة بعامة ذكر الشباب".

والأرض، والملائكة، ما لم يذكره أحد من الشعراء.¹ وله لغة تكاد تكون خاصة به، وهي الإكثار من المفردات المعروفة بطابعها الديني، إلى جانب وجود ألفاظ غريبة غير معروفة حتى للقدماء من علماء اللغة. ويرى الدكتور جواد علي² أن في الشعر المنسوب إلى أمية، وغريبه خاصة، مادة مهمة يجب دراستها لمعرفة منابع التي استقى منها الشاعر علمه وإلهامه، ومدى تأثيره بالآراء والتيارات الفكرية التي وجدت في مكة، وخارج الجزيرة العربية قبل الإسلام، ولا يمكن دراسة هذا إلا بالوقوف على اللغات الأعجمية: الآرامية والعبرانية واليونانية والحبشية،³ فهي لغات أثرت في الجاهلية بواسطة العلاقات التجارية والدينية.

ومن المعروف أن المفسرين أكثروا من الاستشهاد بشعر أمية على ألفاظ القرآن الكريم وألفاظ الحديث النبوي، كما في تفسير الطبري، والتبيان في تفسير القرآن للطبرسي، والفائق في غريب الحديث للزخشي وغيرها. ومن الأمثلة على الاحتجاج بشعر أمية على غريب القرآن ما استشهد به ابن عباس على كلمة "الشواظ" في قوله تعالى: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ﴾ (الرحمن: ٣٥):

يظل يشبّ كبيراً بعد كبير وينفخ دائماً لهب الشواظ

وعن قوله تعالى: ﴿فَالْتَمَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ (الصافات: ١٤٢)

قال: المليم هو المسيء والمذنب، أما سمعت قول أمية: "...ولكن المسيء هو المليم".⁴ هذا عن المعجم اللغوي عند أمية، والمتفق في معظمه مع ألفاظ وردت في القرآن

¹ الجمحي، محمد بن سلام (٥٢٣١) طبقات فحول الشعراء (القاهرة: دار المعارف، ١٩٥٢)، ج ١، ص ٢٦٢.

² علي، جواد، تاريخ العرب قبل الإسلام (بغداد: الجمع العلمي العراقي، ١٩٥٦)، ج ٥، ص ٣٧٩-٣٨٠.

³ قال ابن قتيبة: "وأتي بألفاظ كثيرة لا تعرفها العرب، وكان يأخذها من أهل الكتاب"، الشعر والشعراء، ص ٢٨٠.

⁴ الشواظ: اللهب الذي لا دخان فيه، السيوطي، جلال الدين (٩١١هـ)، الإتيقان في علوم القرآن (القاهرة: مطبعة مصطفى الحلبي بمصر، ط ٤، ١٩٧٨)، ج ١، ص ١٦٠.

⁵ السيوطي، جلال الدين (٩١١هـ)، الإتيقان في علوم القرآن، ج ١، ص ١٦٣. والشرط الأول: بريء من الآفات ليس لها بأهل.

الكريم. وإذا تركنا المستوى اللفظي إلى المستوى الدلالي، وجدنا ظاهرة التناص في المعاني بين شعر أمية والقرآن كثيرة، ومن أمثلتها قوله:¹

وإياك لا تجعل مع الله غيره فإن سبيل الرشد أصبح بادياً
وردت هذه المعاني في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا
مَخْذُولًا﴾ (الإسراء: ٢٢).

ويتوالى هذا التقاطع في المعاني التي يتناولها أمية وما يدعو إليه القرآن الكريم بصورة لافتة للنظر، تذكرنا بما ذهب إليه طه حسين حين قال: "إن العلماء قد اتخذوا هذا الشعر الجاهلي مادة للاستشهاد على ألفاظ القرآن الكريم والحديث ونحوهما... ومن الغريب أنهم لا يكادون يجدون في ذلك مشقة ولا عسراً، حتى إنك لتحس كأن هذا الشعر الجاهلي إنما قدّ على قدّ القرآن الكريم والحديث، كما يقدّ الثوب على قدّ لابسه لا يزيد ولا ينقص عما أراد طولاً وسعة"².

وربما كانت العلامة الفارقة التي وسمت شعر أمية -المصنّف ضمن شعراء الجاهلية- ظاهرة القصص الديني، التي احتلت مساحات كلية من قصائده ومقطوعاته الشعرية مما أضفى عليها الوحدة الموضوعية، وأعطها أهمية خاصة تمثلت في صياغة خطاب موجّه لخدمة المجتمع، ومعالجة الشوائب العالقة به، وعليه يكاد أمية يكون الشاعر الأوحّد الذي نحا هذا النحو في شعره.

وقد التفت القدماء إلى ذلك حتّى قال عنه الكميّ بن زيد: "أمية أشعر الناس، قال كما قلنا، ولم نقل كما قال"³.

نماذج من القصص

يستطيع الدارس لشعر أمية أن يقف على الكثير من القصص الديني الذي يتناول

¹ الحديثي، أمية بن أبي الصلت، ص ٣٦٨.

² طه حسين، في الأدب الجاهلي، ص ١٠٨.

³ الأصفهاني، الأغاني، ج ٤، ص ١٢٢.

أخبار الرسل والأنبياء، وسنحاول في الصفحات الآتية أن نقدم عرضاً تفصيلياً انتقائياً لعدد منها، مع إجراء مقارنة بين ما جاء في شعر أمية حول هذه القصص، وما تضمنته الكتب السماوية المقدسة، مثل القرآن الكريم والتوراة، في محاولة للبحث عن مرجعيات النصوص الشعرية في نصوص أخرى، قد تصل بنا في النهاية إلى معرفة المصادر التي استقى منها أمية مضامين شعره.

أولاً: قصة الخلق و آدم و حواء: قصة الخطيئة والغفران

أو هي قصة الهبوط، كما يسميها الفيلسوف الهندي محمد إقبال¹. وتبدأ الخيوط الأولى للقصة² بذكر مبدأ الخلق، وكيف أن الله سبحانه وتعالى خلق الأرض في يومين، وجعل فيها رواسي من فوقها، وباركها، وقدر فيها أوقاتها في أربعة أيام، ثم استوى إلى السماء وهي دخان...، وسخر الشمس والقمر، ثم خلق ملائكته الذين يسبحون بحمده، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (البقرة: ٢٩).

ويبدأ الجزء الثاني من القصة حين شاءت إرادة الله تعالى أن يخلق آدم وذريته ليسكنوا الأرض ويعمروها، وأنبأ الملائكة بما أراد. ويخبرنا القرآن عن توجس الملائكة من خلق الإنسان؛ لأنه سيفسد الأرض بالمعاصي ويسفك فيها الدماء. قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: ٣٠). وبعد أن اطمأنت نفوس الملائكة خلق الله آدم من طين، ثم نفخ فيه من روحه، وأمر الملائكة أن يسجدوا له: ﴿فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ (البقرة: ٣٤). فعاقبه الله على عصيانه، وناداه قائلاً: ﴿قَالَ أَخْرِجْ مِنْهَا

¹ ذكر هذا في كتابه "تجديد التفكير الديني في الإسلام" نقلاً عن: خلف الله، محمد أحمد، الفن القصصي في

القرآن الكريم (القاهرة: مكتبة الانجلو المصرية، ط ٤، ١٩٧٢) ص ١٨٤.

² وردت القصة عند: المولى، محمد جاد، قصص القرآن (القاهرة: المكتبة التجارية بمصر، د.ت)، ص ١.

مَذْمُومًا مَدْحُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾ (الأعراف: ١٨).
فطلب إبليس من ربه أن يمهلّه إلى يوم البعث، فأجاب الله طلبه.^١

وينتهي الفصل الثاني من القصة بطرد إبليس من رحمة الله، أما الفصل الثالث فيقصّ علينا ما حدث لآدم بعد الخلق. يذكر القرآن الكريم أنّ الله أسكن آدم وزوجه الجنة، وأوحى إليه أن يذكر دائماً نعمة الله عليه، وحذّره من إبليس وغوايته، وكان الاختبار لآدم وحواء حين أباح الله لهما أن يأكلا ما شاءا من ثمار الجنة، ونهاهما أن يقربا شجرة بعينها،^٢ وكانت هذه الشجرة مدخل إبليس لآدم وحواء، فأغراهما حتى أكلا من الشجرة، فغضب الله عليهما وطردهما من الجنة.

هذا ما جاء في القرآن الكريم، أما أمية بن أبي الصلت فقد تحدّث عن قصة الخلق في قصيدة طويلة يزيد عدد أبياتها على خمسين بيتاً، استهلّها بحمد الله والثناء عليه، بألفاظ تفيض إيماناً وخشوعاً:

لك الحمد والنعماء والملك ربّنا فلا شيء أعلى منك جداً ولا مجدُّ
ملكٌ على عرش السماء مهيمٌ لعزته تعنو الجباه وتسجدُّ^٣

وإذا تتبعنا خلق آدم عليه السلام، وسجود الملائكة له، وجدنا أن الخطوط العامة للقصة حاضرة في القصيدة، ما عدا توجس الملائكة من خلق الإنسان، فمثلاً يذكر سجود الملائكة لآدم طاعة لله تعالى باستثناء إبليس اللعين.^٤

وبإذنه سجدوا لآدم كلهم إلا لعيناً خاطئاً مدحوراً

وأشار في أبياته إلى طبيعة العلاقة بين إبليس وآدم، وسعي إبليس (الشیطان) للإيقاع بآدم وذريته، ودفعهم لعصيان أمر الله ليكونوا طعاماً للنار.

^١ انظر سورة ص الآيات: ٧٩-٨١، وسورة الحجر الآيات: ٣٦-٣٨.

^٢ قال تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ البقرة: ٣٥.

^٣ الحديثي، أمية بن أبي الصلت حياته وشعره، ص ١٧٥، القصيدة ٢١.

^٤ الحديثي، أمية بن أبي الصلت حياته وشعره، ص ٢٢٢.

هو القائد الداعي إلى النار لا بنياً ليوردنا منها ولا يتورداً
ولم يذكر أمية - فيما بقي من شعره - سكن آدم وحواء في الجنة، وطردهما منها
لأنهما أكلا من الشجرة المحرّمة.

قصة آدم وحواء كما جاءت في التوراة

وردت هذه القصة في التوراة/سفر التكوين هكذا: "... بأنّ الربّ جبل آدم من
تراب ونفخ في أنفه نسمة الحياة، وغرس الإله جنة في عدن شرقاً، ووضع هناك آدم،
وتحدثنا التوراة عن مواصفات هذه الجنة، وأنّ الربّ أوصى آدم أن يأكل من جميع
أشجارها، ما عدا شجرة معرفة الخير والشر، لأنه حين يأكل منها، فإنه يموت. وتذكر
التوراة بعد ذلك كيف خلق الله حواء، إذ أخذ واحدة من أضلاع آدم وهو نائم
وصنع منها امرأة وأحضرها إلى آدم. وكانت الحية أحيّل الحيوانات البرية فأخذت
تزيّن لحواء الأكل من الشجرة المحرّمة، فأخذت حواء من ثمرها وأكلت، وأعطت آدم
فأكل، فانفتحت أعينهما وعرفا أنّهما عريانان... وحين سألهما الله عن فعلتهما؟ قالت
المرأة: الحية أغرتني فأكلت. فقال للحية: ملعونة أنت من جميع البهائم، على بطنك
تسعين، وتراباً تأكلين، وأضع عداوة بينك وبين المرأة وبين نسلك ونسلها، هو يسحق
رأسك، وأنت تسحقين عقبه...".

وأما آدم وحواء فقد أخرجهما الله من جنة عدن إلى الأرض قائلاً لآدم: "بعرق
وجهك تأكل خبزك، حتى تعود إلى الأرض التي أخذت منها، لأنك تراب، وإلى
تراب تعود".²

هذه هي قصة الخلق كما جاءت في التوراة، وبالمقارنة بينها وبين ما جاء في
القرآن، نجد أنّ الفروق طفيفة منها: أنّ الذي أغرى آدم وحواء للأكل من الشجرة

¹ المرجع السابق، ص ١٨٢.

² التوراة: الإصحاح الثاني والثالث.

وعصيان أمر الله هو إبليس أو الشيطان، وأن العداوة بدأت بينهما منذ ذلك الحين، أما في التوراة فكانت الأفعى، وذهب الجاحظ¹ إلى القول إن الأفعى في بيت أمية:

كذي الأفعى يرببها لديه وذا الجحنيّ أرسله يسابُ

هي الحية التي كلم إبليس آدم من جوفها، وهذا يعني أن إبليس هو الحية، والحية هي المظهر المادي المرئي لإبليس، فهما شيء واحد، من باب تعدد الأسماء والمسمى واحد. فالخلاف إذن ظاهري؛ لأن الغاية واحدة. والقصة تجسد استمرار الصراع بين قوى الخير والشر، فالشيطان/الأفعى يتربص بالإنسان ويوحى له بالشر كي يقع في الخطيئة ويدخل النار.² فهدف القرآن منها ليس العرض التاريخي المحض، بل التوجه إلى أن يجعل لها مغزى عاماً أو مضموناً فلسفياً، ويحقق قصده هذا بحذف أسماء الأشخاص والأماكن التي من شأنها أن تحدد معنى القصة بصبغها بصبغة حادثة تاريخية معينة.

ثانياً: قصة نوح والطوفان

جاء في التوراة أنه نوح بن لامك بن متوشالح، وأنجب ثلاثة أولاد هم: سام وحام ويافت. وكان نوح رجلاً باراً كاملاً في أجياله، وفي أيامه كثر الشر، وامتألت الأرض ظلماً.³ أما في القرآن فقد وردت قصة نوح في أكثر من أربعين موضعاً، وذكرت مفصلة في عدة سور وهي: الأعراف، وهود، والمؤمنون والشعراء والقمر ونوح.⁴ وخلاصة هذه القصة أن قوم نوح كانوا يعبدون الأصنام، ويردون كل شيء في الحياة إليها، فأرسل الله إليهم نوحاً عليه السلام، فدعاهم إلى الله فأعرضوا، فناضلهم

¹ الجاحظ، عمرو بن بحر (ت ٢٥٥هـ)، الحيوان، تحقيق عبد السلام هارون (القاهرة: مطبعة مصطفى الحلبي بمصر، ٢٠٢٢، ج ٢، ص ٣٢٢).

² حلف الله، الفن القصصي في القرآن الكريم، ص ١٨٤. وجاء فيه أن محمد إقبال قال: "إنها قصة رمزية أو أسطورية".

³ التوراة، سفر التكوين، الإصحاح السادس.

⁴ ذكرت أيضاً في سورتى الصافات ويونس.

وجادلهم، ووجههم إلى النظر في سر الوجود وإبداع الكائنات، وبعد جهد جهيد آمنت به قلة، أما الأغلبية فهزئت به.¹

ولما اشتد بينهم وبينه الجدل ضاق صدره، وطلب من الله أن يهلكهم: ﴿رَبِّ لَّا تَذَرْ عَلَيَّ الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا، إِنَّكَ إِن تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ (نوح: ٢٦-٢٧)، فاستجاب الله دعاءه وأوحى إليه: ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِّينَا وَلَا تَخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّعْرَقُونَ﴾ (هود: ٣٧). فاتخذ مكاناً قصياً، وأعد الألواح والمسامير، وأخذ يعمل حتى استوت السفينة، وجاء أمر الله بأن يصعد إليها، وأن يأخذ معه مَنْ آمَنَ من قومه وأهله، وأن يحمل من كل زوجين اثنين. ثم كان الطوفان، وأشرف نوح من فوق ظهر السفينة، فرأى ابنه كنعان،² وكان قد اعتزل أباه، ورغب عن دينه، وآوى إلى جبل ليعصمه من الماء، ولكنه هلك فيمن هلك، ولما انتهى الطوفان، رست السفينة على جبل الجودي، وهبط نوح ومن معه إلى الأرض.

أما القصة كما جاءت في ديوان أمية بن أبي الصلت، فإننا نذكر في البداية أنها وردت في أكثر من مقطوعة شعرية، وإذا جمعنا ما جاء في هذه المقطوعات بعضه إلى بعض أمكننا أن نخرج القصة على النحو الآتي:

قدم الشاعر نوحاً في ثوب الشخص التقي الذي يفعل الخير، ويمثل لأمر الله، ولذلك دعا له بالجزاء الحسن، وقدمه إلى الناس كي يقتدوا به:

جزى الله الأجل المرء نوحاً	جزاء الخير ليس له كذاب
بما حملت سفينته وأنجت	غداة أتاهم الموت القلاب ³

¹ جاد المولى، قصص القرآن، ص ١٣-١٤، وأيضاً عند سليمان الموسى، الأدب القصصي عند العرب (بيروت: دار الكتاب اللبناني، ١٩٥٦)، ص ١٤٢. أما في القرآن الكريم فقد وردت هذه التفاصيل في سورة هود، الآيات: ٢٥-٤٨.

² جاء في التوراة، سفر التكوين، الإصحاح السادس، أن جميع أبناء نوح وهم سام وحام ويافت صعدوا معه إلى الفلك، وأن كنعان هو ابن حام وليس ابن نوح.

³ الحديثي، أمية بن الصلت حياته وشعره، ص ١٥٧.

وهذا المعنى قريب من المعنى القرآني في قوله تعالى: ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ
وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ (العنكبوت: ١٥).

ثم تحدث عما حمل نوح معه من المخلوقات البشرية والحيوانية، وما وفر لها من
الطعام والشراب:

تصرخ الطيرُ والبريةُ فيها مع قويِّ السباع والأفيالِ
حين فيها من كلِّ ما عاش زوجٌ بين ظَهري غواربٍ كالجبالِ
ثمَّ كان الطوفان، وعمَّ الماء الأرض وارتفع الموج،^٢ لكن السفينة لم تتضرر، لأنها
منيعَة الأبواب ومصفحة بالحديد:

عشيَّة أرسل الطوفان يجري وفاض الماء ليس له جرابٌ
وذكر أمية أيضاً ما كان من ابن نوح ورفضه دعوة أبيه في الصعود إلى الفلك،
ومحاولته اللجوء إلى جبل مرتفع. في أسلوب حوارِيّ ونقل مباشر للحدث، يحاكي
أسلوب القرآن عندما تحدث عن الموضوع نفسه:

فلما استنار الله تَنورَ أرضِهِ ففارَ وكان الماء في الأرضِ ساجياً
دعا بابنه نوحٌ ألا اركبْ فإنني دعوتكَ لما أقبل الماء طاغياً
فقال سأرقى فوق أعيظَ حالقٍ^٤ فقال له لستَ العُدية ناجياً^٥
وهذا موافق لقوله تعالى: ﴿وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْرَلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ
مَعَنَا... فَكَانَ مِنَ الْمُعْرِفِينَ﴾ (هود: ٤٢-٤٣).

ويبين لنا كيف ظلت السفينة تمخر عباب الماء حتى أذن الله لها أن ترسو على الجودي:

¹ ظهري غوارب: أعالي الموج. الحديثي، أمية بن أبي الصلت حياته وشعره، ص ١٥٥.

² المرجع السابق، ص ١٥٧.

³ الحديثي، أمية بن أبي الصلت حياته وشعره، ص ٣١٨.

⁴ أعيط حالق: جبل مرتفع لا نبت فيه.

⁵ المرجع السابق، ص ٢٨٤.

وقبل أن يصل أمية إلى هذه النهاية للطوفان والملتقية في نهايتها مع القرآن الكريم، تحدّث بإسهاب عن قصة الحمامة التي أطلقها نوح لاستطلاع الأمر خارج السفينة. فعادت تلك الحمامة تحمل في منقارها عنقوداً ملطّخاً بالطين، وبعد التأكد من صدق العلامات التي جاءت بها الحمامة كوفئت على صنيعها، بأن صنع لها طوق خاص بما يتوارثه أبناؤها من بعدها، ولا يحق لأحد غير نسلها وراثته أو سرقة. قال أمية:

فجاءت بقطف آيةً مستبينةً	فأصبح منها موضع الطين جادياً
على خطمها واستوهبت ثم طوقها	وقالت ألا لا تجعل الطوق حاليًا
ولا ذهباً إني أخاف نبالهم	يخالونه مالي وليس بماليا
وزدني لطرف العين منك بنعمة	وأرث إذا مات طوقي حمياً
يكون لأولادي جمالاً وزينة	وعنوان زيني زينة من ثرابياً

فقضية الحمامة والطوق ليست مذكورة في القرآن الكريم، فمن أين أتى بها أمية؟ هل وردت في التوراة؟ نقدم فيما يلي عرض القصة كما وردت في التوراة.

كان نوح مع الله، وفي أيامه كثر الشر وامتألت الأرض ظلماً فقال الإله لنوح: نهاية كل بشر قد أتت أمامي... اصنع لنفسك فلكاً من خشب، واجعل الفلك مساكن ثم اطله من داخل ومن خارج بالقار. ونجد في التوراة وصفاً تفصيلياً دقيقاً لطول السفينة وعرضها وارتفاعها، ثم كيف طلب الله من نوح أن يدخل الفلك مع امرأته وبنيه ونساء بيته، ومن كل حيٍّ من كل ذي جسد اثنين تكون ذكراً وأنثى من الطيور كأجناسها، ومن البهائم كأجناسها ومن كل دبابات الأرض كأجناسها، وطلب منه أن يأخذ من كل طعام يؤكل. وفعل نوح ما أمره به الله.

ولما صار الطوفان دخل نوح ومن سبق ذكرهم إلى الفلك. وقد انفجرت كل

² المرجع السابق، ص ٣٢٠، وكذلك جاء ص ١٥٨، ٢٥٤.

^٥ القطف كل ما يقطف من الثمار. الجادي: الزعفران. الخطم من كل طائر: منقاره.

ينابيع الغمر العظيم، وتعاضمت المياه كثيراً على الأرض، ومات كل ذي جسد كان يدب على الأرض من الطيور والبهائم والوحوش... ثم امتنع المطر ورجعت المياه عن الأرض رجوعاً متوالياً، واستقر الفلك على جبال أراراط.

وروي أن نوحاً أرسل الغراب¹ لاستطلاع الأمر فخرج متردداً، ثم أرسل الحمامة ليرى هل قَلَّت المياه عن وجه الأرض، فلم تجد الحمامة مقراً لرجلها، لأن مياهاً كانت على وجه الأرض، فعادت إلى الفلك. وبعد بضعة أيام أرسل الحمامة من جديد فأُتت إليه عند المساء وفي فمها ورقة زيتون خضراء. فعلم نوح أن المياه قد قَلَّت، وبعدها كَلَّمَ الله نوحاً طالباً منه أن يتزل ومن معه إلى الأرض، وبارك الله نوحاً وبنيه وقال لهم: اثمروا وأكثرُوا واملأوا الأرض.²

وإذا قمنا بالمقارنة -في حكاية نوح- بما جاء في التوراة وما جاء عند أمية، ثم ما ورد في القرآن الكريم، وجدنا أن الخطوط العريضة تكاد تكون واحدة، فالله -تبارك وتعالى- أرسل نوحاً إلى قومه ليعظهم ويرشدهم، ولكنهم أعرضوا عنه، وحين يئس منهم توجه إلى ربه طالباً منه أن يخلص الأرض منهم ومن شرورهم، فلبى الله دعاءه. هذا عن الخط العام للقصة، أما التفاصيل الدقيقة فهناك بعض وجوه الاختلاف، ومنها:

١. أن القرآن لم يذكر تفاصيل واضحة عن كيفية صناعة السفينة، وعن قوتها وماتانة أبوابها، في حين جاءت هذه الأمور مفصلة في التوراة، وبصورة أقل

¹ قال أمية عن خيانة الغراب للديك (أمية بن أبي الصلت حياته وشعره، ص ١٥٨).

بأية قام ينطق كل شيء و خان أمانة الديك الغراب،

يروى أن الديك كان نديماً للغراب، وأتت شرباً الخمر عند حمار، ولم يعطياه شيئاً، وذهب الغراب ليأتيه بالثمن ورهن الديك، ولكن الغراب لم يعد، فخانه وبقي الديك محبوساً. الجاحظ، الحيوان، ج ٢، ص ٣٢١. كما تحدث أمية عن هذا الموضوع في القصيدة رقم: ١٤٥ ص ٣١٨ في أبيات عديدة

² التوراة، سفر التكوين، الإصحاح ٦، ٧.

تفصيلاً عند أمية.

٢. ذكر القرآن ابن نوح الذي خالف أمر أبيه وكان مع الكافرين، وكذلك ورد في شعر أمية. أما التوراة: فذكرت أن جميع أبناء نوح كانوا من العباد المؤمنين الذين نجّاهم الله من الغرق مع الهالكين.

٣. لم يشر القرآن أبداً إلى الحمامة التي أرسلها نوح لاستطلاع الأمر بعد الطوفان، والمكافأة التي حصلت عليها من نوح عليه السلام، حين رجعت إليه وفي فمها الآية على وجود مكان يابس ترسو عليه السفينة.

لم يذكر القرآن أيضاً الغراب الذي تردد في الخروج، وكأنه لم يمثل للأمر، في حين ورد هذا الخبر في التوراة بشكل لا يحتمل اللبس، وجاء في شعر أمية بتفاصيل إضافية لم تذكر حتى في التوراة، كطلب الحمامة أجراً من نوح عليه السلام، وهو تفرّدها بالطوق، ثم توريث هذا الطوق لأبنائها فيما بعد.

ثالثاً: قصة لوط

هو لوط بن هاران بن تارح من نسل سام بن نوح، وهو ابن أخ إبراهيم عليه السلام. واتخذ من مدينة سدوم في الأردن مقراً له، وكان أهل سدوم أشراً وخطاة لدى الرب جداً^١ وأكثر من ذلك أنهم كانوا يأتون الرجال ويذرون النساء، فلما فشت فيهم الموبقات والفواحش، أوحى الله إلى لوط أن يدعوهم إلى عبادة الله، وينهاهم عن اقتراف هذه الجرائم.

ولكنهم صدّوا عن دعوته، فسأل لوط ربّه أن ينصره على هؤلاء القوم، فاستجاب الله له، وبعث إليه الملائكة في صورة شبّان حسان. فاستقبلهم في بيته ودعاهم للنوم، وعندئذ أحاط بالبيت رجال سدوم من الحدث إلى الشيخ، وطلبوا رؤية الضيوف، ولكن لوطاً استحلفهم بالله، وعرض عليهم بناته: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ، وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ

^١ التوراة، سفر التكوين، الإصحاح ١٣.

إِلَيْهِ وَمَنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ
وَلَا تُخْزَوْنَ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ ﴿٧٧-٧٨﴾. فلما رأى الملائكة
ما يعاني لوط من الحزن والأسى، سكنوا روعه وأخبروه بأهم رسل ربّه، وطلبوا منه
مغادرة المكان قبل أن يحل عليه غضب الله، وأن يصطحب معه أهله وكل من له، وأن
يسيروا دون أن يلتفت أحد إلى الوراء، ففعل لوط ذلك إلا امرأته، قيل لم يخرج بها،
وقيل خرجت والتفت فجاءها حجر فقتلها: ﴿قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا
إِلَيْكَ فَأَسْرَبْ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرَاتُكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا
أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ (هود: ٨١).

وقد وردت قصة لوط عليه السلام وقومه في القرآن في عشرة مواضع، وكانت تتراوح
بين الإيجاز والإطناب، حسب ما يقتضيه السياق القرآني، والعبرة التي سيقى من
أجلها القصة. وجاءت القصة كاملة في سورة هود (٧٤-٨٣) وسورة الحجر في الآيات
(٥٧-٧٧) وسورة الشعراء (١٦٠-١٧٥).

أما أمية بن أبي الصلت فتحدث عن قصة لوط عليه السلام وقومه، فذكر أولاً مكان
وجودهم وهو سدوم، ثم انتقل مباشرة إلى زيارة الملائكة له، وما كان من قومه إذ
طلبوا أن يخلي بينهم وبين ضيوفه من الملائكة المكرّمين. ولكن النبي الكريم كان
حريصاً على ضيوفه، وحمائتهم من شر هؤلاء الفسقة، فعرض عليهم بناته كي
يتزوجهن، ويكفوا عن فعل الفواحش، ولكنهم رفضوا ذلك العرض، وأجمعوا أمرهم
على تحقيق ما يريدون.

ثم لوطٌ أحو سَدوم أتاها	إذا أتاها برشدها وهداها
راودوه عن ضيفه ثم قالوا	قد هيئناك أن تقيم قراها
عرضَ الشيوخَ عند ذاك بنات	كظباء بأجرع مرعاها
غضب القوم عند ذاك وقالوا:	أيها الشيخ خطة نأباها

¹ الحديشي، أمية بن أبي الصلت حياته وشعره، المقطوعة ١٣٧، ص ١٣٠.

وقد عاقبهم الله على شرهم وعصيانهم، بأن غشيهم العذاب، فحسفت بهم الأرض، وأمطرت عليهم السماء وابلأً من الحجارة الطينية، وكان معهم في تأمرهم زوجة لوط، فحاق بها العذاب ولم تكن من الناجين.

أجمع القوم أمرهم، وعجوزٌ
حسب الله سعيها ورجاها
أرسل الله عند ذاك عذاباً
جعل الأرض سفلها أعلاها

أما في التوراة فالقصة تشبه إلى حد كبير ما جاء في القرآن الكريم، باستثناء اختلافات طفيفة في بعض التفاصيل منها: ذكر القرآن الملائكة الذين ذهبوا إلى سدوم دون أن يحدد عددهم، كما أنه لم يحدد عدد بنات لوط، أما التوراة فقد جعلت الملائكة اثنين، وبنات لوط اثنتين: "جاء الملكان إلى سدوم مساءً، وقبل أن يضطجعا أحاط بالبيت رجال المدينة... ولكن لوطاً خاطبهم: لا تفعلوا شراً يا إخوتي هو ذا لي ابنتان لم تعرفا رجلاً، فافعلوا بهما كما يحسن في عيونكم..."^٢.

نظرة مقارنة

بمقارنة القصة في شعر أمية مع ما جاء في القرآن الكريم من ناحية وما جاء في التوراة نجد:

١. القصة في القرآن أعم وأشمل وأكثر وضوحاً، على الرغم من أن القرآن لم يورد تفاصيل الحديث الذي دار بين لوط وقومه. أما التوراة فأشارت إلى ذلك: "ولكنهم ألحوا في الطلب، وتقدموا لكسر الباب، فقام الرجلان وضرباهم بالعصى"، فضلاً عن تفاصيل أخرى.^٣
٢. لم يشر الشاعر إلى أن سيدنا إبراهيم عليه السلام قد حاور الملائكة، وجادلهم بشأن

^١ المرجع السابق، ص ٣١١.

^٢ التوراة، سفر التكوين، الإصحاح ١٩.

^٣ المرجع نفسه.

قوم لوط، الأمر الذي ذكر في القرآن^١. كذلك لم يشر إلى الحوار الذي دار بين لوط والملائكة، وطمأنتهم له بأن الله سينجيّه والعصبة المؤمنة معه.

٣. لم يذكر الشاعر وقت إهلاك قوم لوط، ولا وقت خروجه مع المؤمنين من المدينة، في حين حدّد الزمان بدقة في القرآن.

إن شعر أمية في قصة لوط متأثر بالقرآن سواء في طريقة القص أو في الغاية منه. وجدير بالذكر أن القرآن في قصصه لم يسلك مسلك التوراة، فلم يقصّ أخبار الأنبياء والمرسلين كما قصّت هي، وإنما اختار بعضهم ليقصّ قصصهم، ثم إن الغاية من القصص الديني ليس القص بحد ذاته وتوفير العناصر الفنية لهذا القص. ولذلك فإن القرآن كان حين يقصّ الخبر يغفل عنصري الزمان والمكان، كما أنه يهمل بعض التفاصيل أو ذكر بعض الأسماء، فهو يقوم بعملية اختيار أو انتقاء لبعض الأحداث دون بعض، فلم يُعنَ مثلاً بتصوير الأحداث الدائرة حول شخص، أو الحاصلة في أمة تصويراً كاملاً، وإنما كان يكتفي باختيار ما يساعده على الوصول إلى أغراضه. ولعله من أجل ذلك، كان القرآن يجمع في الموطن الواحد كثيراً من الأقاليم التي تنتهي بالقارئ إلى غاية واحدة، كما أنه لا يهتم بالترتيب الزمني أو الطبيعي في إيراد الأحداث وتصويرها، وإنما كان يخالف في هذا الترتيب كما في قصة لوط.

رابعاً: قصة سيدنا إبراهيم الخليل / مدخل تاريخي

جاء في التوراة أنه إبراهيم بن تارح من نسل سام بن نوح، وامرأته سارة (ساراي)، وكانوا قد هاجروا من أور الكلدانيين إلى حاران، ثم إلى أرض كنعان. وحدث جوع في الأرض فأنحدر إبراهيم إلى مصر، وعاش فيها مرة، ثم عاد ثانية إلى أرض كنعان ومعه لوط ابن أخيه. ولكن الأرض لم تحتل أن يسكننا معاً، فارتحل لوط شرقاً إلى دائرة الأردن، ونقل خيامه إلى سدوم...^٢

^١ سورة هود: ٧٧-٨١، كما ورد هذا الحوار وافياً في التوراة، سفر التكوين، الإصحاح ١٩.

^٢ التوراة، سفر التكوين، الإصحاح ١١-١٣.

واستقر إبراهيم في فلسطين، وكانت سارة عقيماً لا تلد، فطلبت من زوجها إبراهيم أن يدخل على جارتهما المصرية هاجر، لعل الله يرزقه منها بولد، وشاءت إرادة الله أن تحمل هاجر وتلد إسماعيل. أما سارة فقد دبت الغيرة في قلبها، وطلبت من إبراهيم أن يرحل بها وبطفلها إلى أقصى الأماكن. فسار بهما إلى مكان بعيد وبقعة جرداء، حتى رحمهما الله، فتدفقت المياه من الأرض، ودبت الحياة فيهما من جديد، هذه المياه هي بئر زمزم التي ما زال يزدحم حولها الحجاج حتى يومنا هذا.¹

وتخبرنا التوراة بعد ذلك أن سارة قد وهبها الله على الكبر إسحق، وبذلك أصبح لإبراهيم ولدان هما إسماعيل وإسحق. وحدث بعد هذا أن الله امتحن إبراهيم، وطلب منه أن يأخذ ابنه الذي يحب إلى أحد الجبال، فأخذ إبراهيم الحطب ويده السكين، وربط إسحق ابنه، ثم مَدَّ يده ليذبحه، فناداه ملاك الرب من السماء وقال: يا إبراهيم، لا تفعل، ونظر إبراهيم فإذا بكبش في الغابة، فأخذه وذبحه، ونظر الأمثال له لأمر الرب، فقد باركه الله.²

هذا ما جاء في التوراة، أما ما جاء في القرآن الكريم بخصوص إبراهيم وابنه الذبيح، فلم يكن بنفس التفاصيل أو الالتزام بالترتيب الزمني للأحداث، إذ يذكر القرآن بشارة الله لإبراهيم بسلامة حليم، وحين كبر رأى إبراهيم في نومه أنه يؤمر بذبح ولده - ورؤيا الأنبياء حق - فاستجاب لربه، وأخبر الغلام بما ينوي ليأمنس بالذبح، فبادر الغلام بالطاعة. وفي ذلك قوله تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ وَفَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ﴾ (الصافات: ١٠١-١٠٧).

¹ حاد المولى، قصص القرآن، ص ٥٥. جاء في التوراة، الإصحاح ٢١ أن هذا المكان هو بئر السبع.

² هذا ما جاء في سفر التكوين، الإصحاح ٢ وذكر أن اسم الجبل هو المريا وهو الجبل الذي عليه مدينة القدس.

أما أمية فقصّ حديث إبراهيم مع ابنه الذبيح في قصيدة متعددة الروايات، إذ يقول:

ولإبراهيم الموفّي بالنذْ رِ احتساباً وحاملِ الأجزاءِ
الأجزاء: هي القطع الكبيرة من الحطب، فهذا البيت لم يجدد هوية الذبيح أهو
إسحق أم إسماعيل. ولكن للبيت رواية ثانية:

مع إبراهيم الموفّي بالنذْ رِ وإسحق حاملِ الأجزاءِ
بكرُهُ لم يكن ليصبرَ عنه لو يراه في معشرٍ أقتالِ
فإبراهيم قد وفّى بنذره مع ابنه إسحق الذي كان يحبه أشد الحب، ولا يطيق
صبراً على فراقه. فأمية يقول إن إبراهيم هو الذي نذر أن يذبح ابنه لله تعالى. وهناك
رواية تقول إن إبراهيم عليه السلام، حين بشرته الملائكة بغلام قال: هو ذبيح الله، ولما كبر
الولد أمره الله وحيّاً أن يفّي بنذره:

قال يا بنيّ إني نذرْتُكَ اللهُ شَحِيطاً فاصبرْ فديّ لك حالي
وقد أخبر إبراهيم ولده أنه نذره لله، فتلقى الولد الخبر بتسليم ورضا، وشجّع أباه
على تنفيذ ذلك، وطلب منه ألا يدع الدم يلطخ ثيابه عند ذبحه، وأن يُحكّم وثاقه حتى لا
يفكر في الهرب إذا أحس بالألم، وهذه التفاصيل انفرد بها أمية ولم ترد حتى في التوراة:
فأجاب الغلامُ أن قالَ فيه كلُّ شيءٍ لله غيرَ انتحالٍ
فاقض ما قد نذرتَ لله واكفف
واشدّد الصّفَدَ أن أحيد من السكين
عن دمي أن يمسه سربالي
حيدَ الأسيرِ ذي الأغلالِ¹

¹ الحديثي، أمية بن أبي الصلت حياته وشعره، المقطوعة ٨٥، ص ٢٥١.

² المرجع السابق.

³ الشحيط، الذبيح، الميت الذي يشحط في دمه.

⁴ وردت هذه القصيدة كاملة في: الحديثي، أمية بن أبي الصلت حياته وشعره، ص ٢٥١ وما بعدها.

⁵ غير انتحال: غير ادعاء حتى في الموت.

⁶ المرجع السابق.

ثم يصف السكين التي أعدها إبراهيم للذبح، وبعدها يصف كيف أقبل إبراهيم على ابنه يترع عنه سراييله، وكيف قرّب السكين من عنقه وأمرها عليه، ولكنها لم تقطع، كأن الله تعالى أحال عنقه إلى قطعة من النحاس. وبينما هو كذلك، إذ فداه الله بكبش عظيم، وأمر إبراهيم أن يفك وثاق ولده، وأن يذبح الكبش فداء عنه، وهذا جزاء من الله لوالده وولده قدما نموذجاً فريداً لخشية الله وتقواه وطاعته، فكان ردّ الله على ذلك أن يخلد هذا العمل على مدى الدهر، وأن يرد على الأب ابنه، وعلى الابن حياته.

وله مديّةٌ تحايلُ في اللحم هُذامٌ جَلِيّةٌ كالهلّال¹
بينما يخلعُ السراييلَ عنه فكّه ربّه بكبشٍ جلال²
قال: خذه وأرسلُ ابنكُ إني للذي قد فعلتما غيرُ قالي²

هذه هي قصة إبراهيم الخليل وولده كما وردت في شعر أمية، وهذه القصة في معطياتها العامة وغالبية شخوصها ومجريات حياتهم، تتفق مع ما جاء في القرآن الكريم في سورة الصافات، كما أنها تتشابه مع ما جاء في التوراة حول الموضوع نفسه. ولكنها مع ذلك ذات تفاصيل متفردة، فهي ليست نسخاً لما جاء في التوراة، كما أنها لا تتطابق تماماً وحرفياً مع ما جاء في القرآن، وفيما يلي توضيح ذلك:

◀ ورد في التوراة أن الله هو الذي أمر إبراهيم بذبح ابنه، وكذلك جاء في القرآن الكريم، أما عند أمية فإن إبراهيم هو الذي نذر ابنه لله، وحاول ذبحه وفاء لنذره.

◀ حدّدت التوراة اسم ابن إبراهيم وهو إسحق ابن سارة، أما القرآن فلم يحدد اسمه. وجاء في تفسير الجلالين هو إسماعيل أو إسحق، فلا اتفاق على الأمر، وأن علماء المسلمين اختلفوا في تحديد المقصود، وإن كان الأرجح عندهم أنه إسماعيل وليس إسحق. وإذا عدنا إلى شعر أمية وجدنا البيت الخاص بهوية الذبيح يروى في صورتين

¹ المديّة: السكين. هذام: فاطمة.

² المرجع نفسه.

مختلفتين إحداهما تغفل الاسم، والأخرى تقول إنه إسحق¹. ولكن هذه الرواية متهافة؛ لأن أمية يذكر إسحق قائلاً: "بكره لم يكن ليصبر عنه...". والمعروف أن إسماعيل هو البكر. وعلى أية حال، فالذبيح هو ابن إبراهيم، وعلى هذا اتفقت جميع المصادر السماوية والبشرية. وقد تصدى للحديث عن هذا الموضوع عبد الوهاب النجار في كتابه "قصص الأنبياء" حيث قال: "إن مسألة الذبح كانت قبل ولادة إسحق، وأنها حصلت بنواحي مكة، وليس كما تذكر التوراة من أنها حصلت مع ابنه إسحق في أرض المريا على أحد الجبال هناك. وتولى سليمان موسى الرد عليه باستنكار قائلاً: إن النجار يرى أن الذبيح هو إسماعيل لا إسحق، لماذا؟ لأنه لا يمكن أن يكون إسحق أبو اليهود هو الذبيح، ولا يكون إسماعيل أبو العرب؟ ثم يواصل التعليق: "إن نصّ التوراة أوضح من أن يقبل شرحاً أو تأويلاً. ولسنا في موقف الدفاع عن التوراة، وليس في مقدور من كان مثلي أن يثير مثل هذه البحوث، وأن يرد على القسس والمشايخ، ولكنني أعيد الحقائق من أن تصبح تحت أقلام بعض الكتاب، عرضة للذم والتحقيق، خاصة متى كانت هذه الحقائق واردة في الكتب الدينية..."²

فالقضية خلافية كما رأينا وليس من غايات هذا البحث الوصول إلى يقين حول شخصية الذبيح، ونكتفي بالتذكير بأن القرآن لم يحدد ذلك، وأن ما يرمي إليه هذا البحث هو:

أولاً: إجراء مقارنة بين مضمون شعر أمية الديني وبين الكتب المقدسة كالتوراة والقرآن الكريم. وقد لاحظنا أنه في هذه القصة تحديداً، جاء بتفاصيل لم ترد لا في

¹ وردت هذه الرواية في كتاب: ناصف، علي النجدي، **القصة في الشعر العربي** (القاهرة: دار نهضة مصر، د.ت) ص ٩٥. واعتمد عليها حين قابل ما ورد في القرآن الكريم وما جاء عند أمية بشأن إبراهيم وابنه الذبيح، واستشهد بقول أمية:

مع إبراهيم الموي بالند ر وإسحق حامل الأجزاء.

² نقلاً عن الموسى، سليمان، **الأدب القصصي عند العرب** (بيروت: دار الكتاب اللبناني، ١٩٥٦)، ص ١٥١.

القرآن ولا في التوراة، ولعلها من نسج خياله.

ثانياً: الوقوف على غائية هذه القصة التي تحكي قصة الأب التقي العظيم الذي أطاع ربه، حتى إنّه لم يتردد في تقديم فلذة كبده -الذي انتظره بفارغ الصبر- قرباناً يعبر فيه عن مدى خضوعه وامتناله لرب العالمين: ﴿وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ، قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ، إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ، وَفَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ﴾ (الصافات: ١٠٤-١٠٩).

ثم هذا الابن الذي يتقبل مصيره بصبر وثبات، طالما أنه في سبيل الله، ويشجع الأب على تنفيذ الأمر، وكأنه يخفف عنه الأسى والحزن وهو يذبح بيده ولده وحببيه، فيكافئهما الله، ويخرجهما من المحنة سالمين، مباركين إلى الأبد.

فالغاية من هذه القصة الدينية ليست البيان والتفصيل بل الموعظة والاعتبار، ولا يجوز أن ننظر إليها نظرة ظاهرية خارجية، بل نظرة عمق واستبطان تجسد قمة الإخلاص في الطاعة عند إبراهيم، وتضرب المثل الأعلى في التضحية وجهاد النفس.¹

خامساً: ... قصص أخرى

توالى تقديم قصص الرسل والأنبياء في شعر أمية، بحيث لا تخلو منه قصيدة أو مقطوعة، وتجنباً للإطالة والإطناب نقدم تحت هذا العنوان سرداً لهذه القصص، مكثفين بالإشارة إلى بضعة أبيات للتمثيل لا للحصر ومنها:

قصة موسى عليه السلام: هو موسى بن عمران بن يصهر بن يعقوب.² وكانت شخصية موسى من أكثر الشخصيات دوراناً في القرآن الكريم، ويرى محمد خلف الله أن سبب ذلك، ربما يعود إلى اشتهاها وشيوعها في البيئة العربية، فقد كان موسى نبي اليهود، وكان اليهود في ذلك الزمن يسيطرون على البيئة العربية من حيث التفكير الديني، حتى

¹ علي ناصف، القصة في الشعر العربي، ص ٩٨-١٠٠.

² عن اسمه وسيرته انظر: المقدسي، ابن مطهر، البدء والتاريخ (طبعة باريس ١٩١٩)، ج ٣، ص ٨١-٨٣.

لقد كان العرب أنفسهم يستشيرونهم في أمر النبي محمد ﷺ، وهذه السيطرة جعلتهم يقصون كثيراً أخبار موسى وفرعون، وقليلاً أخبار غيره من الأنبياء.¹

وقد وردت قصة موسى في أكثر من سورة² منها: سورة طه، وسورة القصص، وسورة الصافات. وبالطبع وردت هذه القصة في التوراة بخلافات طفيفة، كما جاءت في أكثر من مقطوعة في ديوان أمية، ونميل إلى الاعتقاد بأن هذه المقطوعات هي نتف من قصائد طويلة، لأن ما فيها يشير إلى إمام أمية بالقصة كقوله:

قالت لأخت له قصيّه عن جُنُبٍ وكيف تقفو بلا سهلٍ ولا جدَدٍ³
وهذا البيت ورد لا قبله ولا بعده، مع أن سياقه يوحي بوجود أبيات سابقة، وأخرى لاحقة. وهو يتحدث عن أم موسى وإرسالها ابنها كي تتقصى أخباره، حينما التقطه آل فرعون بعد إلقائه في اليم، وهذا موافق لقوله تعالى: ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصَّرَتْ بِهِ عَنِ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (القصص: ١١).

ثم أشار إلى ظهور الرب لموسى في جبل الطور وتكليمه إياه، وطلبه منه أن يذهب إلى فرعون الذي تمادى في غيّه، وأن يدعوه إلى عبادة الله. فطلب موسى من ربه العون بأخيه هارون، فأعانه الله، ووجههما لدعوة فرعون ليكفّ عن طغيانه، وأن يذكرّاه بنعم الله وقدراته، كبسط الأرض، ورفع السماء، وتوفير النور بالشمس نهاراً، والقمر ليلاً، وغيرها من الدلائل والآيات الواضحة لمن كان يعقل أو يعي، كقوله:

فقال أَعْنِي يا ابنِ أُمِّي فَإِنِّي كثيرٌ به يا ربِّ صلِّ لي جناحياً

فقلت له:

يا اذهبْ وهارونَ فادعُوا إلى الله فرعونَ الذي كان طاغياً

¹ خلف الله، الفن القصصي في القرآن الكريم، ص ٢٣٤.

² سورة طه: ٩-٩٨، سورة القصص: ٣-٤٣، سورة الصافات: ١١٤-١٢٠.

³ الحديثي، أمية بن أبي الصلت حياته وشعره، ص ٢٠٣. يقفو: يتبع. الجدد: الأرض الغليظة.

⁴ المرجع السابق، ص ٣٦٩-٣٧٠.

ومن قصص الأنبياء التي أوردتها أمية قصة عيسى بن مريم عليهما السلام. وقد وردت القصة في القرآن الكريم في سورة آل عمران، وفي سورة مريم. وجاء في القرآن أن جبريل تمثل لها في صورة بشر سويّ الخلق، فنفخ في جيب درعها، فحملت بعيسى، فلما ظهر الحمل اهتموا يوسف النجار وكان خطيبها، وقال قوم بل اهتموا زكريا وقتلوه.^١ فلما جاءها الطلق خشيت لائمة القوم، وقالت يا ليتني مت قبل هذا، وقد جاء في ذلك قوله تعالى: ﴿فَاجْأَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا وَهَزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطُ عَلَيْكَ رُطْبًا حَنِئًا﴾ (مريم: ٢٣-٢٥). وذكر أمية بن أبي الصلت هذه القصة في شعره،^٢ واستهل حديثه بالقول إن الله تعالى قد جعل من حمل مريم بولدها عيسى -عليهما السلام- آية تدل على عظيم قدرته، وعجيب صنعه:

مُنْبِئَةٌ بِالْعَبْدِ عَيْسَى بْنِ مَرْيَمَ	وَفِي دِينِكُمْ مِنْ رَبِّ مَرْيَمَ آيَةٌ
فَسَبِّحْ عَنْهَا لَوْمَةَ الْمَلْتُومِ	أَنَابَتْ لَوَجْهِ اللَّهِ ثُمَّ تَبَتَّلَتْ
إِلَى بَشَرٍ مِنْهَا بِفَرْجٍ وَلَا فَمٍ	فَلَا هِيَ هَمَّتْ بِالنِّكَاحِ وَلَا دَنْتْ

فمريم امرأة عاشت حياة غير عادية، انقطعت لعبادة الله، وزهدت في كل شيء، وبينما هي كذلك جاءها -بعدها نام أهلها- الملك، وخاطبها يخبرها أنه رسول الله إليها ليهب لها غلاماً:

رَسُولٌ فَلَمْ يُحْصَرَ وَلَمْ يَتَرَمَّرْ ^٣	تَدَلَّى عَلَيْهَا بَعْدَمَا نَامَ أَهْلُهَا
مَلَائِكَةٌ مِنْ رَبِّ عَادٍ وَجُرْهُمِ	فَقَالَ أَلَا لَا تَجْزَعِي وَتُكْذِبِي
رَسُولٌ مِنَ الرَّحْمَنِ يَا تَيْكَ بَابِنِمْ	أَنْسِي وَأَعْطِي مَا سُئِلْتَ فَإِنِّي

^١ المقدسي، البدء والتاريخ، ج ١، ص ١١٨-١٢٠.

^٢ الحديثي، أمية بن أبي الصلت، المقطوعة ١١٩: ص ٢٩٠-٢٩٢.

^٣ الحصر: ضرب من العي. يترمرم: يصمت ولم يتكلم.

وبعد أن تأزمت الأمور جاءت الرحمة الإلهية في الوقت المناسب، على لسان هذا الصغير النبي المتكلم الذي أنطقه الله ليدفع عن أمه التهمة، مبيناً أنه آية من آيات الله، وأن الله بعثه نبياً، وعلمه كل شيء، ونزّهه عن الفحش والآثام.

فأدر كهـا من ربّها فيض رحمة بصدق حديث من نبيّ مكلم
فقال لها إني من الله آيةً وعلمني والله خير معلّم

وفي محاولتنا لإجراء مقارنة بين ما جاء عند أمية عن عيسى وأمه عليهما السلام، وما جاء في القرآن الكريم، نجد أن معانيه جاءت متطابقة إلى حد كبير مع القرآن وإن غابت منها بعض التفاصيل، كالحظة الميلاد عند جذع الشجرة، ونوع طعامها وشرابها، كما أنه لم يسهب في تصوير حالتها النفسية لحظة المخاض. كذلك لا نعثّر في ديوان أمية على أيّ إشارة تتصل بدعوة المسيح لليهود، وما جاء به من المعجزات وكيف انتهى أمره، في حين نجد مثل ذلك في القرآن، وكذلك في العهد الجديد (الإنجيل). ونكرر في هذا المقام ما قلناه في مكان آخر، من أن أمية التفت إلى المعنى العام أكثر من التفاته إلى تقديم قصة ذات تفاصيل متنوعة، لأنه يقوم بدور الواعظ وليس بدور القاص الفنان، كما نعتقد أن بعض أبيات هذه القصيدة قد سقطت، وهذا السقوط متكرر في ديوان أمية، إذ نجد عدداً كبيراً من الأبيات المدرجة في هيئة مقطوعات مستقلة، مع أن الصلة بينها واضحة في المعنى والمبنى.

ومن القصص التي ذكرها أمية أيضاً قصة ثمود والناقة التي وردت في المقطوعة ٤٤،^١ ومن المعروف أن هذه القصة وردت في القرآن الكريم في أكثر من سورة، ومن أوائل السور التي نزلت فيهما سورة الشمس وسورة القمر، كما جاءت أخبار عنهما في كل من: الأعراف والشعراء والنمل.

كذلك ذكر أمية، من بني إسرائيل، سليمان عليه السلام وأباه داود. وداود كما جاء في

^١ الحديثي، أمية لن أبي الصلت، ص ٢١٥.

التوراة،^١ هو ابن يهوذا الذي اسمه يسيى، وكان داود^٢ مشهوراً بعمل الدروع، وقام ملكاً على بني إسرائيل لمدة أربعين سنة.

أما سليمان فقد أسأل الله له النحاس في ملكه ثلاث ليال، قال تعالى في كتابه العزيز: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ﴾ (سبأ: ١٢)، ويبدو أن أمية كان على علم بهذا الأمر:

وسليمان إذ يسيلُ له القِطْرُ
على ملكه ثلاث ليال^٣

كما وردت إشارات أخرى في شعر أمية توحى بعلمه بعدد آخر من الأنبياء، ولكننا لم نقف عندها الوقفة المناسبة، لعدم ورودها في قصائد كاملة وافية، بل جاءت منشورة في الديوان في البيت الواحد أو البيتين، وكأن هذه الأبيات ظلت شاهدة أمام الزمن على ضياع قسم كبير من شعر هذا الشاعر المتميز.

مرجعيات شعر أمية

لم يقتصر أمية في شعره على تقديم القصص الدينية والتاريخية، بل كرّس غالبية شعره للوعظ والإرشاد، وكان القص جزءاً مكماً لعمله، وكأنه يقدم الدليل المادي الحقيقي على صدق ما يقول، ويدعو الناس إلى أخذ العبرة والعظة من الأمم السابقة. ولولا جاهليته لاعتقدنا أنه يفعل ذلك من منظور ديني خالص منطلقاً من قوله تعالى: ﴿فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الأعراف: ١٧٦).

ويدل شعره على أنه كان على علم بأخبار الأقدمين وقصصهم، خاصة الأنبياء والرسل. والتساؤل الكبير الذي يواجهنا هنا: من أين استقى أمية هذه المضامين العقائدية الوعظية؟ وما المصادر التي اطلع عليها واستوعبها، حتى استطاع أن يوظفها

^١ التوراة، سفر صموئيل الأول، الإصحاح ١٧.

^٢ الحديثي، أمية بن أبي الصلت، ٢٥٦.

^٣ المرجع السابق، ص ٢٥٨.

بشكل عميق في شعره؟ هذا التساؤل يقودنا إلى ما يسمى بظاهرة التناص في شعر أمية (Intertextuality)، وينطوي مفهوم " التناص " على أن النص أفق مفتوح على أفكار ومعتقدات... قابلة للتليح والاندماج، ومستقرة في الذاكرة الفردية أو الجماعية للإنسان في كل زمان ومكان.¹ ومعنى ذلك أن النص يتفاعل مع غيره من النصوص، كما يعني أن النص الأول هو الأصل أو السابق الذي استقى منه اللاحق موضوعاته! واتفق النقاد -إلى حد ما- على تحديد مصطلح التناص ومنطقاته في التوجه إلى النص باعتباره حاملاً لنصوص غائبة.² فما هي هذه النصوص الغائبة؟

في البداية، إن أمانة البحث العلمي تقتضي أن نقول: إن أمية لم يكن الشاعر الوحيد من شعراء الجاهلية الذين ذكروا الله والأمور الدينية، فقد ذكره أكثر من واحد من هؤلاء، وتحدثوا عن آلائه ونعمائه، ومن ذلك قول زيد بن عمرو بن نفيل:

وأسلمتُ وجهي لمن أسلمتُ له الأرضُ تحملُ صخرًا ثقلاً
دحاها فلما رآها استوتُ على الماءِ أرسى عليها الجبالاً³

ومن أشعار الجاهليين أيضاً التي تدور في نفس الفلك قول صرمة بن أنس بن

قيس:

وله هودتُ يهودٌ وكانت كلُ دينٍ وكلُ أمرٍ عُضالٍ
وله شمسُ النصارى وقاموا كلُ عيدٍ لهم وكلُ احتفالٍ

ومن المعروف أن هذين الشاعرين وأمثالهما لم يكونوا يهوداً ولا نصارى. وقد عدّهم الباحثون العرب على دين إبراهيم الحنيف، دين التوحيد، انطلاقاً من الآية القرآنية: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا﴾ (آل عمران:

¹ إبراهيم موسى، آفاق الرؤيا الشعرية (رام الله: وزارة الثقافة، 2005)، ص 13.

² المرجع السابق، ص 21.

³ المقدسي، البدء والتاريخ، ج 1، ص 75-76.

⁴ المرجع السابق، ج 1، ص 76.

٦٧). وكذلك يستشف من أشعار الجاهليين وجود أهل الديانات السماوية بين ظهرانيتهم، وجدير بالذكر أن اليهودية كانت منتشرة في اليمن ويثرب وخيبر وبعض قرى وادي القرى، كما كانت المسيحية منتشرة في اليمن وفي نجران بالذات ومنهم أصحاب الأحدود، وقد اعتنقها المناذرة والغساسنة. وهذه مؤشرات على اتصال عرب الجاهلية بأهل الكتب السماوية والتأثر بهم. وقد أشار القرآن إلى ذلك أكثر من مرة: "إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى" (الأعلى: ١٨-١٩). كما ذكره الرسول الكريم ﷺ، ومن أمثله ما أخرجه الحاكم عن ابن عباس قال: "لما نزلت سبَّح اسم ربك الأعلى"، قال ﷺ: "كلها في صحف إبراهيم وموسى"^١.

وهذا يعني أن هناك أدلة مادية وعقلية تشهد بمعرفة العرب معرفة لا بأس بها بأخبار الأمم السابقة وقصص الرسل والأنبياء قبل الإسلام، على الرغم من وثنيتهن. ونذكر في هذا المجال أن محمد خلف الله^٢ قسّم مصادر القصص القرآني إلى ثلاثة أنواع:

١. نوع كان معروفاً في البيئة العربية، ومن هذا النوع تلك القصص التي وردت عنها إشارات في الشعر العربي الجاهلي، كقصص أحمـر عاد أو أحمـر ثمود، وقصص الجن مع سليمان. والملاحظ أن هذه الأقايص قد كررت وجاءت في أكثر من غرض. وتفسير ذلك: أن القرآن الكريم كان يذهب مذهب من يبني الأقايص على ما هو مألوف أو مشهور من مسائل التاريخ وقضاياها.

٢. نوع نستطيع أن نسلم بأنه كان مجهولاً جهلاً تاماً في البيئة المكية، وذلك هو النوع الذي نزل ليثبت نبوة النبي ﷺ، وليجيب عن أسئلة المشركين للنبي ليعرفوا صدق رسالته، ومنها قصص أصحاب الكهف وذي القرنين. وجدير بالملاحظة أن هذا النوع لم يرد إلا مرة واحدة، ولم يتكرر تكرر غيره، ولم يجئ

^١ السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، ج ١، ص ٥٢.

^٢ خلف الله، الفن القصصي في القرآن الكريم، ص ٢٣٠ وما بعدها.

لأغراض كثيرة ومختلفة. وتفسير هذه الظاهرة أن القرآن الكريم ما كان يذهب مذهب من يبني الأقايص على ما هو غريب ونادر، إلا حين تدعو إلى ذلك ضرورة ملحة، كأن تكون الغرابة نفسها هي المقصد والغرض.

٣. نوع يشبه فيه القارئ فلا يدري أهو من النوع الأول أم هو من النوع الثاني. ومن أمثله قصة آدم مع إبليس، وقصة الخلق، وقصص لوط ونوح وإبراهيم وإسحق ويعقوب ويوسف وداود وأيوب وغيرهم. ونستطيع أن نعرف مدى الصلة بينه وبين البيئة العربية وبخاصة المكيّة بأمرين:
أ. طريق القصص: تشعر بأنه كان معروفاً، وكان القرآن يجري فيه على أسلوب موجز.

ب. التكرار: وهذا واضح في قصص الأنبياء الذين دعوا الناس إلى عبادة الله تعالى، ثم قوبلوا بالسخرية والأذى، والغاية من تكرار هذه القصص تعزية الرسول ﷺ والتخفيف عنه، ولفت نظر أهل مكة إلى أخذ العبرة من الأمم الغابرة.

شرح وتعليق

أولاً: بالنسبة إلى النوع الأول المعروف في البيئة العربية فمصادره هي الكتب السماوية المقدسة كالتوراة والإنجيل، حيث جاور العرب أصحاب هذه الديانات واختلطوا بهم، بل إن منهم من اعتنق المسيحية أو اليهودية. وكان للتوراة أثر بارز في القصص الديني، والمظنون أنها ترجمت إلى العربية قبل الإسلام، وشاعت بين أدباء العرب آنذاك، ولكنها فقدت. أما الترجمة العربية للتوراة فقد ظهرت في العصر العباسي الثاني. ويذكر ابن النديم أن أحد علماء اليهود المتمكنين في العربية واسمه سعيد القيومي قد ترجم التوراة¹. ويروى عن أمية نفسه أنه قد قرأ الكتب وأتبع أهل

¹ الموسى، الأدب القصصي عند العرب، ص ١٢٨.

الكتاب،^١ وذكر أبو الفرج في خبر آخر أنه قرأ في كتاب الله عزّ وجلّ الأول، أي التوراة. وقد لاحظنا في مكان سابق كيف تأثر أمية بالتوراة واستفاد منها. وعلق جورجي زيدان قائلاً: "وقد ظن البعض أنه مسيحي لكثرة ارتياده للكنائس ومجالس الرهبان".^٢

ويتفرع من هذا النوع ما أخذه العرب من ثقافات الأمم المجاورة، عن طريق السفر والتجارة، وقد جاء في شعر أمية كلمات أعجمية كثيرة من لغات هذه الأمم كالعبرية والسريانية والحبشية وغيرها من اللغات التي لم تكن معروفة عند العرب، من ذلك أنه كان يسمى الله في بعض أشعاره "السُّلْطِيط" و"التُّغُرور"، ويعتقد أنه اقتبسها من الحبشية أو صاغها على صيغ تلك اللغة. فالأحباش يسمون الله في اللغة الأمهرية "أغزاجر"، وقد وردت هذه الألفاظ والتراكيب في مواضع كثيرة من شعره.^٣

فالكثرة الكثيرة من الرسل والأنبياء الذين قص قصصهم كانوا معروفين في البيئة العربية، ويؤكد محمد خلف الله هذا الرأي قائلاً: "ليس هناك من يدعي أن الذي قد حدث غير هذا...، وأما من الغيب الذي لا يعرفه إلا من يطلعه الله عليه. لأن هذا القول يخالف طبائع الأشياء".^٤ وجاء في القرآن الكريم ما يؤيد هذا التوجه: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ (النساء: ١٦٤).

ثانياً: أما عن النوع الثاني المجهول جهلاً تاماً في البيئة العربية فإن كلام الدكتور محمد خلف الله بشأنه غير دقيق، والأصح منه ما ذهب إليه علي عبد الحليم من أن

^١ المقدسي، البدء والتاريخ، ج ٢، ص ١٤٤.

^٢ زيدان، جورجي، تاريخ آداب اللغة العربية (القاهرة: دار الهلال، ١٩٥٧)، ج ١، ص ١٣٦-١٣٧.

^٣ الحديثي، أمية بن أبي الصلت، ص ١٣٢ وما بعدها. ومثال ذلك قوله:

إن الأنام رعايا الله كلهم هو السُّلْطِيط فوق الأرض مقتدر

وذكر ابن حنّو أن السلطيط هو القاهر من السلاطة. اللسان مادة سلط.

^٤ خلف الله، الفن القصصي في القرآن الكريم، ص ٢٣٢.

^٥ محمود، علي عبد الحليم، القصة العربية في العصر الجاهلي (القاهرة: دار المعارف، مصر، ط ٢، ١٩٧٥)، ص ٧١.

هذه القصص (أهل الكهف وذا القرنين) لم يكن مجهولاً جهلاً تاماً، بل كان معروفاً لهم وهماً وخيالاً، فسألوا النبي عنه "فقص عليهم القرآن القصص الحق كقصة ذي القرنين"، قال تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقُرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ (الكهف: ٨٣). وكذلك الحال في أصحاب الكهف. ويرى الطبري أن القرآن الكريم يصور في هذه المسائل التي سئل عنها النبي ﷺ آراء أهل الكتاب فيها، ويذكر أن القصص كان معروفاً عند العرب، وأنه حين أنزل القرآن على الرسول ﷺ تلاه عليهم زماناً، فقالوا: يا رسول الله لو قصصت علينا، فأنزل الله تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ﴾ (يوسف: ٣). فالناس طلبوا من الرسول الكريم القصص، مما يدل على أنه كان لهم قصص.^١

ثالثاً: بناءً على ما تقدم فإن قسماً من القصص الديني كان مجهولاً جهلاً تاماً، أو معروفاً بشكل غير واضح (أشياء سمع العرب عنها ولم يعرفوا قصتها) كقصة ذي القرنين وأصحاب الكهف. وقد ذكر أمية هاتين القصتين، ونحن إذا سلمنا بأنهما كانتا مجهولتين أو غامضتين في البيئة العربية؟ فهل هناك مصدر آخر استفاد منه أمية؟ وهل يمكن أن نجد هذا المصدر في القرآن الكريم؟

إذا افترضنا أن القرآن الكريم مصدر من مصادر شعر أمية فهذا يدفعنا إلى التساؤل عن الزمن الذي نظم فيه أمية هذه الأشعار؟ هل نظمها قبل مجيء الإسلام في العصر الجاهلي؟ أم نظمها بعد الإسلام متأثراً بالقرآن؟

وكان الدكتور طه حسين قد سبقنا إلى طرح هذا السؤال: هل القرآن الكريم مصدر من مصادر شعر أمية، خاصة وأن الرسول وأميه كانا متعاصرين؟ لم لا يكون أمية هو الذي أخذ عن النبي، خاصة وأنه عاصره حوالي عشرين سنة بعد

البعثة؟^٢

^١ نقلاً عن علي عبد الحليم محمود، القصة العربية، ص ٢١.

^٢ طه حسين، في الأدب الجاهلي، ص ١٤٥.

وكلام طه حسين يجعلنا نفترض أن أمية سمع هذه القصص من القرآن الكريم عن طريق النبي ﷺ، ثم أضافها إلى رصيده، معلوماته في المجال الديني. ويقوي هذا الافتراض ما عرفناه من سيرة أمية، ولهفته على الموضوعات التي تحث الإنسان على عبادة الله، وتقديم له العبرة والدروس من الأمم السالفة، ومن ناحية أخرى كان المشركون يستمعون إلى القرآن ليعرفوا حقيقة الإسلام. وقد ذكر الزمخشري أن الوليد بن المغيرة المخزومي كان من ألد أعداء المسلمين، سمع الرسول ﷺ يتلو آيات من الذكر الحكيم، فتوجه إلى نفر من قريش قائلاً: "والله لقد سمعت من محمد كلاماً ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن، إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وإنه يعلو وما يعلى عليه".¹

وهناك سبب آخر يرفع الثقة بهذه الفرضية، وذلك حين نتعرف إلى السور القرآنية التي يتشابه معها شعر أمية شبيهاً قوياً، لنجد أنها من السور المكية التي نزلت بمكة قبل الهجرة. وقد ذكر ابن سعد في طبقاته بأسانيده، عن ابن عباس أنه قال: "سألت أبا بن كعب عما نزل من القرآن بالمدينة فقال: نزل بها سبع وعشرون سورة، وسائرهما بمكة".²

ومن السور المكيّة التي يتشابه معها شعر أمية في المعاني العامة وفي بعض المفردات: الأعراف، ويونس، والحجر، والكهف، ومريم، والأنبياء والنمل، وسبأ، والقمر، ونوح، والصفاء وغيرها. وقد اشتمل كتاب الله العزيز على كل شيء، ففيه عن بدء الخلق وأسماء مشاهير الرسل والملائكة، وعيون أخبار الأمم السالفة، كقصة آدم مع إبليس في إخراجه من الجنة... وإغراق قوم نوح، وقصة عاد الأولى والثانية، وثمود والناقة، وقوم يونس، والأولين والآخرين وقوم لوط وقوم تبع... وقصة إبراهيم في مجادلته قومه... وقصة الذبيح وقصة يوسف، وقصة موسى وإلقائه

¹ الزمخشري، محمود بن عمر (ت ٥٣٨هـ)، الكشاف (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٩٩٧)، ج٤، ص٦٥١.

² السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، ج١، ص١٢.

في اليم... ومجيئه إلى فرعون وخروجه... وقصة سليمان وخبره مع ملكة سبأ... وقصة ذي القرنين وبنائه السد، وقصة مريم وولادتها عيسى عليه السلام وإرساله ورفع... وقصة أصحاب الفيل...¹ إلى غير ذلك من الموضوعات والقصص التي ورد بعضها عند أمية بصورة قد تتفق أو تختلف مع القرآن الكريم، وإن كان قد ذهب مذهب القرآن الكريم في الغاية من القص وهي لفت النظر إلى مواطن العبرة والهداية.

خاتمة

نخلص من هذه الدراسة إلى أن أمية كان على اتصال قوي مع الكتب السماوية، وخاصة التوراة والقرآن الكريم وقد تأثر بهما كثيراً، وحالة التأثر لم تقف عند حدود استلهاام النصوص/المرجعيات، بل كانت عملية نقل واعية استهدفت المضمون واللغة، وحوّلتها من شكلها المعروف إلى الشكل الشعري الموزون والمعقود بقوافٍ، دون قصد إلى التفنن في التصوير أو التكلف في أساليب التعبير، فجاء شعره على غرار الشعر التعليمي الذي يتوخى وضوح الألفاظ وقرب المأخذ.

¹ المرجع السابق، ج ٢، ص ١٦٤.